التخاطب بالقول السائر: دراسة خطابية لـ"الحكاية فيها إنّ"

*أحمَد محمَّد أبودلو، خالد حسَين دلْكي**

ملخص

مِمّا لا شكّ فيه أن عملية تحليل الخِطاب، في أبسط إجراءاتها، تنطلق من توزين معادلة خِطابيّة، يكونُ طرفيها المَقامُ والمَقال؛ فإذا تناسَب المقال مع المقام، كانَ النّجاح ووصلت الرسالة، وإذا لم يناسب المقال المقام، كان الفشل وسوء التّفاهم. بمعنى وظيفيّ، يبحث محلل الخِطاب، بدافعٍ من المشغَل اللغوي التواصلي، عن اِنسجام الخِطاب من حيث كونه تلفّظًا يتوصّل به في موقف اجتماعي ما إلى الإبلاغ فالتأثير في المتلقي، وأثناء ذلك تحصل مقاربات كثيرة على مستوى المتكلم وصورته والمخاطب ونفسيته والخِطاب وقنواته الإبلاغية؛ وذلك كله من منطلق انسجامه. والقولُ السائر عبارةٌ من أهمِّ سِماتها التَّداوُل والقدرة على تكرار نفسِها في بيئات سياقيّة متشابِهَة، حيث يكون له دورٌ كبيرٌ في إيصال رسالة ذات معنى وتأثير على المُخاطَب. من هنا، تأتي هذه الدراسة للكشف عن "البنية الخِطابية" للقول السائر في قدرتِهِ على الإبلاغ والتأثير، وفي طاقته على الاستمرار؛ وقد اختارَت الدراسة، لتتسم بالقيمة العملية التطبيقية، قولًا سائرًا معاصرا، شائِعًا، بِهِ الناس يتخاطبون، وهو "الحكاية فيها إنّ". والدراسة، إذ تنطلق من أدوات تحليل الخِطاب في تحليل القول السائر السابق، تسعى للإجابة على السؤال الآتي: كيف يحصل الإبلاغ بالقول السائر؟

الكلمات الدالة: تحليل الخِطاب، القول السائر، علم التخاطب، التداولية (البراغماتية)، الإبلاغية والتأثير.

(1)

القول السائر: وجهة نظر خِطابيّة!

يتَّسِعُ مفهوم **القول السائر** ليشمل أجناسًا أدبية كثيرة، تتراوَحُ بين الشعر والنثر، لكنّها كلَّها تتسم بالإيجاز والتداول والسيرورة عبر الزمان والمكان. والناظرُ في هذا التَّنوُّع الأجناسيّ، يلحظُ انحيازًا لنوع دون الآخر؛ فإنّ ما شاعَ من بين هذي الأجناس وطغى على غيره، وتنافَسَ الكِتاب، قديمه وحديثه، بالعنونة به دون غيره، هو ـ بلا اختلاف ـ المثل، حتى إنّ الكتب تُعَنْوَن بالأمثال وبين دفّتيها كَمّ وفيرٌ من الأقوال السائرة الأخرى كالحكمة والقول المأثور وغيرها (عبيد 2005: 19.).

والحقُّ أنّ علماءَ قدامى مثل "اليوسي" وباحثين محدثين كثيرين، ذكرَهم بشيء من التفصيل والمحاورة "حاتم عبيد" (عبيد 2005: 18–22) في بحثه، قد وقفوا عند المثل يعرِّفونه ويميّزونه من غيره من الأجناس التي تشترك معه في خصيصتي الإيجاز والسيرورة. والجدير بالذكر أنَّ كل تلك المحاولات، حتى محاولة "حاتم عبيد" التي امتازَتْ باتكائِها على المنهج الدلالي، لم تصل إلى نتيجة مقنعة وعملية في تصفية المثل من غربال الأقوال السائرة؛ وإلى النتيجة نفسِها التي وصلَ إليها "حاتم عبيد" بعد عرض تلك المحاولات، يمكن أن نكررها بقوله هو بعد تدبّر محاولتِهِ الدلالية، والقول يشملها: "أبرزُ عقبةٍ تعترض دارِسَ المثل ناجمةٌ من تنوع العلاقات التي يعقدها مع أطرافٍ أخرى، سواء تلك التي تربطه بقصته، أو تلك التي تجمعه بالتمثيل والحكاية المثلية، أو تلك التي تقرنه بأشكال وجيزة شبيهة به" (عبيد 2005: 23). فما فعلَهُ "حاتم عبيد"، في محاولته الدلالية، أنه قفزَ عن حفرةٍ ليقعَ، في غمرةِ ابتهاجِهِ بتجاوزِها، في حفرةٍ أخرى؛ إذ التمييزات الدلالية التي خرج بها من أبحاث "كليبر" و"ميشو" فيما يتَّصف به المثل من غيره من الأقوال، التي كانت خلاصة بحثه، يمكن بكل بساطة أن تصدق على قول مأثور أو حكمة؛ فالقول المأثور "خير الأمور أوسطها"، مثلًا، (1) جملة عامة، و(2) المعنى الحاصل من تلك الجملة يتعلق بالإنسان، و(3) هو كذلك ذو بنية استلزامية.

مهما يكن الأمر، فإنّ هذا الاحتفاء بالمثل دون غيره لا يعني إلا شيئًا واحدًا، أنَّ المثلَ يعتلي أجناس القول السائر، ويستأثر بتفكير القدامى والمحدثين وعنايتهم، سواءٌ الذين يجمعونه أو الذين يدرسونه؛ وفي هذا دعوة للبحث عن الغاية التي من أجلها كانَ

* قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة اليرموك، الأردن؛ جامعة عجمان، الإمارات العربية المتحدة. تاريخ استلام البحث 2017/8/30، وتاريخ قبوله 2019/5/15.

 © 2019 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

هذا الاهتمام؛ ونحن في سؤالِنا عن الغاية نرومُ أن نصلَ إلى فسحةٍ من التفكير تضعنا في مقاربة خِطابية لهذه الإشكالية.

يظهر الجانب التعليمي التربويّ (التأديبي، بحسب التداول القديم) غايةً إليها سعى جمّاعو المثل (عبيد 2005: 5، 20؛ الهدروسي 2008: 101)؛ فبه ينصلِح اللسان ويصير أقوم في القول وأقوى وأحلى في الحديث. وإذا بحثنا عن حقيقة تلك الغاية فإننا يمكن أن نُجْمِلَها **بالمَدْعى الخِطابيّ**، متمثلًا في أمرين؛ الأول منهما أسلوبي، يتجلى في تزيين الخِطاب وتحليته بما يعطيه جمالية وزينةً لها مرجعها الأصيل الذي لا يتزحزح في كتاب الله وحديث نبيه على حدّ قول "الميداني"، فهي "تحوج الخطيب المصقع والشاعر المفلق إلى إدماجها وإدراجها لاشتمالها على أساليب الحسن والجمال، واستيلائها في الجودة على أمد الكمال، وكفاها جلالة قدر وفخامة فخر أن كتاب الله(عز وجل) .... لم يَعْرَ من وشاحها المفصل ترائبُ طوله ومفصَّله، ....، وأنّ كلام نبيه (صلى الله عليه وسلم) لم يخلُ .... من مَثَلٍ يحوز قصبَ السبق في حلبة الإيجاز ...." (الميداني1955: 1: 1)، والآخر المقدرة الحجاجية للأمثال باعتبارها حُجّة كلامية ذات حمولة إقناعية كبيرة، ومسلّمة اجتماعية نتاجَ خبرات طويلة؛ ورغم أنّ هذا الأمر من المجمع عليه بالوعي الفطريّ قبل البحث اللغوي فإنّ "اليوسي" قد ذهب إليه ودافعَ عنه، وفي ذلك يقول: "قيل المثل هو الحجة، وهو صحيح لأنه يحتج به" (الليوسي 1981: 1).

ولعلّنا نجد في هذي الحماسة لـ"اليوسي" تبئيرًا للفرق الجوهري بين المثل وغيره من القول السائر، ينعقد في الغرض؛ فالمثل ـ كما أخبرَنا وتناوله الدراسون الحديثون ـ يأتي حجّة في أحاديْثِنا وسندًا قويًا لبؤرة خِطاباتنا، يمكن القول فيه إنّه هامش قوي يوثّق معلومة النص ويعطيه مصداقيةً وقبولًا أكثر؛ والسبب في هذه السمة الحِجاجية أنّ المثل قائمٌ على التصوير، وردّ الحادثة الحالية إلى حادثة سابقة (حقيقية أو مُتصوَّرة) وقعت وتحققت نتائِجها ضمن شبكة اجتماعية مفاهيمية لا يسع المتلقي إلا الخضوع لها. أمّا الأقوال السائرة الأخرى فليس الغرض منها التصوير ولا التمثيل، بل هي ـ في أكثرها ـ نوعٌ من التأمُّل والاستئناس، وضرب من الفطنة واللعب اللغوي، وحقل من النصح والإرشاد.

بحديثٍ آخر، فإنّ المثل يصوّر ما يقع (في الأغلب) أو يُحْتَمَل وقوعُهُ (في الأقل)، أما الحكمة ـ مثلا ـ والأقوال الأخرى فهي تقدّم رأيا وتعطي انطباعًا؛ وبلغةٍ فلسفية يمكن القول إنّ المثل منفعل في الموقف ولكن بلغة تنبيهية تستعير الفكاهةَ غالبًا، بينما الأقوال الأخرى فاعلة فيه بلغة جادّة وقويّة.

إلى هذا التصوّر يكادُ جلُّ الباحثين يصلون في إطار بحثهم في الفرق بين الحكمة والمثل. ونشير في هذا المقام إلى محاولة "توفيق أبو علي"، الذي يرى أنّ الحكمة تختلف عن المثل في أنها أكثر تجريدًا منه، لصدورها عن فكر فلسفي، ولأنها تنشأ عن إعمال الفكر والتعمق في فهم الحياة واستكناه أسرارها، وتهدف إلى الوعظ والتنبيه والإعلام، فهي تحديد شرط سلوكي وقيمة أخلاقية، في حين أن المثل يُقْصَد للاحتجاج به، وفي الوقت الذي تمتاز فيه الحكمة بالطابع الشخصيّ والعناية الأسلوبية المتعمدة؛ فإنّ المثل يغلب عليه طابع الذيوع، ويكون موسوماً بالطابع الجمعيّ " (أبو علي1988: 4، وانظر: محاسنة 2010: 12).

ليسَ "أبو علي"، كما رآه "محاسنة"، هو السبّاق أو الوحيد في هذا الرأي، فـ"الحذيري" (1991: 31: 109 – 134) و"إيميل بديع يعقوب" قد أشارا من قبلُ إلى ذلك. يقول الأخير: "الحكمة وليدة تجربة وعقل مفكّر، وهي تصدق غالبًا في كل زمان ومكان، أما المثل فربما لا يتضمن فكرة ثاقبة أو رأيًا سديدًا."(يعقوب1995: 1: 23)، ويقول أيضًا: "إن الغاية من المثل الاحتجاج، أما الغاية من الحكمة فالوعظ والإرشاد."(يعقوب1995: 1: 23) ويعترض "حاتم عبيد" على "يعقوب" إذ يراه قد حرَمَ الحكمة من أهمّ وظائفها وأخطرها، وهي الحِجاج (عبيد 2005: 22)، لكن ما غابَ عن "عبيد" أن "يعقوب" لم يقصدْ من "الاحتجاج" معناهُ المتداول حاليًا في الدراسات الحديثة، وإنما قصدَ به أنه تصوير يُحْتَجُّ به، أو هكذا يكونُ حالُهُ غالبًا، والحكمةُ ليسَ فيها تصويرٌ يقوّيها للاحتجاج إنما يكون القصدُ منها أن تعظَ وترشد.

ما يلفتُ الانتباه في كلام الباحثين، في إطار مقاربتنا الخِطابية، القيمة التخاطبية للمتكلم الأصيل (منشئ القول السائر) أولًا، والقيمة التخطابيّة للقول نفسِه تاليًا. وبذلك، فنحن نرجع بـ"المقاربة الخِطابية" للقول السائر إلى التصوّر التواصليّ التلفّظي. فليست المقولات في قوّتها التخاطبية واحدة، وهي تختلف بحسب حمولتِها ومتكلمها ومخاطَبها وظروف حكيها. فإذا أردنا أن ندلل على ذلك، فسنختار ثلاث عيّنات من القول السائر يشيعُ التواصل بِها، وهي المثل والقول المأثور والحكمة، يمكن أن نصنّفها حسب الجدول الآتي:

القول السائر	القوة الخِطابية للمُنْشئ	القوة الخِطابية للقول
المثل	واحد من المجتمع	تتناسب قوة القول في التخاطب به طرديًا مع منشئه الأصلي (في الوعي الجمعيّ)، باعتباره مرجعيّة ذات سلطة؛ ولا ريبَ أنّ السلطة التخاطبية مراتب ودرجات.
الحكمة	مفكّر وصاحب رأي	
القول المأثور	متكلم مشهور (الرسول والصحابة مثلا)، ومنها جوامع الكلم.	

(2)

المنجز الخِطابي للقول السائر: بلوغ الدلالة وإبلاغ القصد

انتهى المبحث السابق بنتيجة مهمة، هي أنّ القول السائر جنسًا خِطابيًا يشمل كل قول تنطبق عليه شروطه مع الاعتبار لقوته الخِطابية القارّة في المخيال الجمعيّ؛ وإذا كان من أهم شروطه أنه كلامٌ سائر، وجيز في شكله، كبير في محتواه، فإنّ هذا يعني اقتضاءً أنَّ القول السائر يُعدُّ قناة إبلاغية تواصلية يلجأ إليها كل شرائح المجتمع في أحاديثهم ومكاتباتهم؛ إذ إنها تحقق لهم، أثناءَ تواصلهم، أكبر قدر من التأثير في أقل عدد من الألفاظ.

وتجب الإشارة هنا إلى أنّ التخاطب بالقول السائر يحمل معه زيادةً على مضمونه المتمثل في التبليغ والتخاطب معلومات أخرى يكوّنها السامع عن المتكلم إن هو استعملَها؛ وهذا هو المقصد الأساسي من تعليم هذي الأقوال قديمًا، كما توضَّحَ سابقًا. وفي هذا المقام، يقول "التهامي" في معرض حديثه عن وظيفة اللغة: "وقد يستفيد السامع، إن استعمل بعض ذكائه، من مخاطِبه، حتى وإن لم يرد هذا الأخير ذلك، ....، موقف محدثه مما يعرضه بنفسه، رقَّة قلبه أو فظاظته، خِفَّة روحه أو ثقل ظله، ويعرف منه كذلك مدى فهمه للأشياء وكيفية معالجته الأمور ثم يحكم عليه إن بالصراحة أو بالنفاق، بالطيبة أو الخبث، بالفطنة أو بالتغفل... إلخ." (الهاشمي 1986: 110) وإلى هنا ينتهي كلامه، لكننا يمكن أن نؤكّد على ذلك ونزيد بأنّ استخدام الأقوال السائرة في الحديث أو في الخِطاب المكتوب ينال استحسان الآخرين وإعجابهم، عدا عن وظيفته الأساسية في الإبلاغ (أثر الفعل القوليّ)؛ فربما يحدث الضحك على **مَثَلٍ** يقوله المتكلم، أو أن يطأطئ السامع رأسه ويمتقع لونه إثر **قول مأثور** يحكيه المخاطِب؛ ولا يخفى ما لـ"القوة الخِطابية" من إسهام في ذلك. ولكن كيف يكون استعمالُها؟ وَمِنْ ثَمَّ كيف يكون تأويلُها؟

نحن، إزاءَ القول السائر، نكون أمام قوالب خِطابية جاهزة، تحمل دلالاتِها الراسبة في بنيتها العميقة التي سجّلها لها تاريخ الاستعمال، ويريد المتخاطبون استخدامَها واللجوء إليها كأدوات إبلاغية في أحاديثهم. وهنا، ينقسم القول السائر كخطاب مُنْجَز إلى بنيتين: بنية دلالية بالغة بسبب من طبيعتِها التكرارية (سيرورة)، وبنية دلالية إبلاغية (تداولية) يسعى المتكلم إلى تأويلها والإفصاح عن خَباياها. فنصير، فلسفيًا، أمام إشكالية كبيرة! فنحن نريد أن نستخدم لغة جاهزة، أُنْتِجت قديما واستُخْدِمَت، كان لها معنى مبعثر في كلمات، فالتأمت في جملها وصار لها معنى سياقي، ثم أَنْتَجها أحدُهم فصار لها معنى مقاميّ؛ ونريد الآن أن نعيد إنتاجَها، فكيف نحسب المعنى؟ وما هو المعنى الحاصل؟ أهو المعنى الأول (دلالة الكلمات الأولى)؟ أم المعنى الثاني (دلالة الاستعمال المقامي الأول)؟ أم هو المعنى الثالث (دلالة الاستعمال المقامي الثاني)؟ أم هو حصيلة كل هذي المعاني مجموعةً؟ وكيف يصير ذلك؟

بشيء من التفصيل في الإجابة، فقد عرف المجتمع معنى الأقوال السائرة وأفكارها التي تنقلُها بفعل شيوعِها وصارتْ دلالتها تواطئية بأصل وضعِها الأول، تمامًا مثلما عرفوا الكلمات؛ فمن سيكدّ تفكيره بالبحث عن معنى "قلم" ـ مُجرَّدة عن التَّكَلُّم ـ بعد كل هذي السنوات من الاستعمال؟! إذن، فالتداول كفل للأقوال السائرة حفظ دلالاتها المقامية الاستعمالية قارَّةً في بنيتِها المتكاملة، بقطع النظر عن ظروف إنتاجِها الأولى (مُنْتجها، وقصتها/ بيئة إنتاجها)؛ فما أَنْ تُذكَر حتى يحضر معناها، وتتجلى فكرتُها دون تعب أو عناء. بمعنى أنّ القول السائر مجردا، كبنية دلالية مُنْجَزَة، صارَ بِحُكْم الجملة، و"الجملة عبارة عن الوحدة اللسانية المجردة، منظورًا إليها في غياب أي ارتباط بالسياق". (الحميري2009: 22)، لكنها جمل تحمل معاني قضوية جاهزة للاستعمال، إلا أنها تظلُّ موجودة وقارة في المخيال الجمعي مضافًا إليها قوّتُها الخِطابية، لكنّها تحتاج إلى طرف رئيسي (مُتَلَفِّظ مَسْؤول)، ينقلُها بإرداته وقصده من وجود بالقوّة إلى وجود بالفعل؛ فيصير القول السائر، مِنْ ثَمَّ، فعَالًا في ضوء أفعال الكلام، إذ إنه يكون حاملًا لطاقة القصد الملازمة لكل ملفوظ إنجازيّ (العجيمي 1992: 322).

وبهذا المسلك التواصلي، يكون الاستعمال ويحدث التأويل؛ ويمكن هنا أن نصطلح على هذا المسلك التواصلي، السابق تفصيله، بـ"الكفاءة الموسوعية" التي تعد أرضية مشتركة بين المتحدثين؛ وهو ما يحرص عليه المتلفظ حين ينشئ تلفظًا باللجوء إلى "الأقوال السائرة"، إذا أراد أن يكون تلفظه ناجزًا ونافذًا ذا أثر حقيقي في المتكلم. وهو، لهذا، مُطالَب أيضًا بتوضيح "المعلومات السياقية" الحافة بالقول السائر، "فالشكل الأولي للسياق النصيّ يحدد المجال السياقي الذي سيمكن المتلقي من فهم ما يُقال لاحقًا" (براون ويول1997: 71)، والمتلقي كذلك "مدعوّ إلى عدم إنشاء سياق يفوق ما يحتاج إليه للوصول إلى فهم معيّن لقول ما" (براون ويول1997: 71)، بحيث لا يخرج في تأويله عن "المجال السياقي" الذي طرحَهُ المتلفظ، وهو ما يدفع المتلقي ـ في حال أنّ المتكلم قد توسَّع في السياق باللجوء إلى استخدام القول السائر باعتباره لغة محدودة، وربما مَعمَّية أحيانًا ـ إلى اللجوء لقانون "الاستدلال" في ربط "الدال القوليّ" بـ"المدلول المعنويّ".

ونحن بذلك لا نخرج، في حديثِنا حول تأويل القول السائر، عن مبدأَيْ "الفهم المحلي" و"القياس" اللذين تحدث عنهما "براون ويول"؛ وهما مبدآن يرتبطان بـ"قدرة السامع/ القارئ على استعمال معرفته بالعالم وتجربته لأحداث مماثلة هي التي تمكنه من الحكم على المقصد الذي يهدف إليه الكلام. كما أن معرفته للعالم هي التي تحدد فهمه المحلي." (براون ويول1997: 73)، فالخطيب الذي يطالب المُصَلّين بالفضائل، فيضمّن كلامه الآية الكريمة: "كنتم خير أمة أخرجت للناس"، فإنّه يلعب بذكاء في وعظه وإرشاده، عن طريق "صدى القول" (كفاءة موسوعية) في البنية العقلية للمخاطَبين؛ ولا غرابة أن ترى أحدَهم، بعد هذا القول السائر، يهزُّ رأسه ويحوقِل علامةً على وصول الرسالة وإبلاغ الدلالة. والمخاطَب، هنا، لم يخرج في تأويله عن "سياق الحديث"، كما أنه استطاع، بحكم تداول القول السائر، أن يقف على "غرض الخطيب ومقصوده" من استعمال القول السائر الآنف. وما نلحظه أكثر هنا، أنّ الخطيب لجأ إلى قول سائر يحمل في محتواه قوة خطابية كبيرة يستمدّها من المنتج الأول، وهو الله.

(3)

"الحكاية فيها إنّ": من مغامرة العقل إلى تأويل النقل

حَوْل اللغة، يحوم المجتمعُ طويلًا، لينقّلَ مواقعَها الاستعماليّة وينتقل معها في سَنَنٍ مرسومةٍ، يحكمها تطوّرٌ في بنية العقل التواصلية. فلا شكَ أنّ حاجة الإنسان للتواصل ستُنْتِج لغة، لكنها في ضوء قوانين المجتمع الفكرية والثقافية الخاضع لها، تكون مشروطة وذات إطار محدد المعالم، والخروج عنه يعني الخروج عن الصورة اللغوية التواصلية (المنسجمة) لمجتمع ما.

وإذا كان هذا حال اللغة في المجتمع، فإن قانون التأويل ـ بالتالي ـ يتسع ويضيق تبعًا للإطار المرجعي العام للتعاملات اللغوية في مجتمع ما، فـ"هناك مجتمع يتصف بصراحة شديدة مثلا، يراها مجتمع آخر خشنة جافة، لا تتلاءم وقواعد السلوك العامة .... لغة المجتمع الأول تعبر بصراحة مباشرة عن الأمور المشينة والعوارت، والأعمال التي لا ينبغي أن تذكر في عبارات مكشوفة. أما لغة المجتمع الثاني، فتتلمَّس دائمًا حسن الحيلة وأدب التعبير، مستعملةً المجاز في الألفاظ، والكناية بدلا من صريح القول." (عبد التواب 1997: 135) وهذا ما يفسّر أكثرَ حرصَ الولاةِ والسلاطين على أن يتعلَّم أبناؤهم الأقوال السائرة، يحفظونها ويتحدّثون بها. فإنّ انسجامَها في حديثِنا من شأنه أن يعطي انطباعًا عامًّا عن البنية العقلية للمتخاطِبين بها، فيكونُ من اللباقة أكثر ـ مثلا ـ أن تقولَ المرأةُ لزوجِها (مستعيرة القول من القرآن الكريم) حين أرادَ أن يواطِئَها الفراش وقد حاضَت: "أتى أمرُ الله، فلا تستعجلوه"، ويكون الرجلُ ذا فطنة حين يفهم فيمتنع عن زوجته.

مهما يكن الأمر، ففي مجتمع هذا حالُهُ، سيكون مقبولا جدًا أن تكونَ الفطنة اللغوية في أشُدِّها بين المتعلمين والساسة؛ ومصداقُ هذه الحال ما كان يدور من أحاديث المعميات والألغاز والأحاجي. (انظر: ابن الأثير، بلا ، 3، 84–96) ولا شكّ أنّ "الفطنة اللغوية"، بما هي قانون تأويل بليغ، تُعَدُّ "مغامرة عقلية" بامتياز، فأعلى درجات التأويل ـ بلا شك ـ وأسماها هي فك مغاليق اللغز والمعميات (تأويل اللغز)، الأمر الذي يحتاج معه إلى جهد عقلي كبير نقولُ عنه "فطنة"؛ وهذه الفطنة العقلية، بدورها، لا تعملُ بقدرات عقلية مجردة فتدور في حلقة فكرية فارغة، إنما هي بحاجة إلى أن تمتلئ بخلفية ثقافية ولغوية عالية (كفاءة موسوعية) حتى يشتغل العقل جيدًا في تأويل محمولات اللغة الفكرية داخل السياق المقامي.

وبالعودة إلى قانونَي "الفهم المحلي" و"القياس" في تأويل الأقوال، يمكن أن نضعَ تعقيبًا على الحديث السابق (المغامرة العقلية في تأويل الألغاز) الملاحظةَ الآتية: سيكون مطلوبًا من المتخاطبين بهذا الصنف من الأقوال أن يشتغلوا في التأويل بإمكانيات عقلية رفيعة المستوى، بحيث يحضر القياس والاستدلال والفهم المحلي بقوّة أكبر وتركيز أكثف من الوضع الطبيعي للتأويل.

وليسَت الحكاية الأساس التي انطلقَ منها قولُنا السائر (الحكاية فيها إنّ) ببعيدة عن هذا الحديث، إنّها مغامرة عقلية حقيقية بامتياز، قال عنها "ابن الأثير": "وهذه من أعجب ما بلغني من حدة الذهن وفطانة الخاطر، ولولا أنه (أي علي بن المنقذ) صاحب الحادثة المخوفة لما تفطن إلى مثل ذلك أبدا، لأنه ضرب من علم الغيب، وإنما الخوف دله على استنباط ما استنبطه" (ابن الأثير، بلا ، 3، 93).

وبالرجوع إلى ترجمة "علي بن المنقذ" للوقوف على القصة الحقيقية وتبيين طبيعة المغامرة العقلية فيها، تبيَّن لنا أنّ المرويات في المظانّ قد تعددت، واختلفَ معَها المؤوِّلون، ولكن مع اختلاف الذات المُؤوِّلَة فإنّ النص قَدْ أُوِّلَ بالطريقة التواصلية الصحيحة التي أرادَها الباثّ (صاحب الرسالة)، كما سيتبيَّن ذلك في الحكاية التي سنوردُها من كتاب "وفيات الأعيان" نصًّا كما ثَبَتَتْ. يقول "ابن خلكان" في ترجمة "علي بن المنقذ":

"**<u>كان موصوفًا بقوة الفطنة</u>**، وتُنْقَل عنه حكاية عجيبة، وهي أنّه كان يتردد إلى حلب قبل تَمَلُّكِهِ شيزر، وصاحبُ حلب يومئذ تاج الملوك محمود بن صالح بن مرداس، فجرى أمرٌ خافَ سديد الملك المذكور على نفسِهِ منه، فخرجَ من حلب إلى طرابلس

الشام وصاحبُها يومئذ جلال الملك بن عمار، فأقامَ عنده، فتقدم محمود بن صالح إلى كاتبه أبي نصر محمد بن الحسين بن علي بن النحاس الحلبي أن يكتب إلى سديد الملك كتابًا يتشوّقه ويستعطفه ويستدعيه إليه، ففهم الكاتب أنه يقصد له شرًا، وكان صديقًا لسديد الملك، فكتب الكاتب كما أمر إلى أن بلغَ إلى "**إن شاء الله تعالى" فشدَّد النون وفتحَها**، فلما وصل الكتاب إلى سديد الملك عرضَهُ على ابن عمّار صاحب طرابلس ومَنْ بمجلسه من خواصه، فاستحسنوا عبارة الكتاب واستعظموا ما فيه من رغبة محمود فيه وإيثاره لقربه، **فقال سديد الملك: إني أرى في الكتاب ما لا ترون، ثم أجابه عن الكتاب بما اقتضاه الحال، وكتب في جملة الكتاب "أنا الخادم المقر بالأنعام" وكسر الهمزة من أنا وشدد النون، فلما وصل الكتاب إلى إلى محمود ووقف عليه الكاتب سر بما فيه وقال لأصدقائه: قد علمتُ أن الذي كتبتُه لا يخفى على سديد الملك، وقد أجاب بما طيب نفسي؛ وكان الكاتب قد قصد قول الله تعالى "إنَّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك" (القصص:20) فأجاب سديد الملك بقوله تعالى "إنّا لن ندخلَها ما داموا فيها" (المائدة: 24) فكانت هذه معدودة من تيقظه وفهمه.**" (ابن خلكان بلا، 3: 410)

واضِحٌ من هذه القصة إذا ما قاطعْناها مع القول السائر "الحكاية فيها إنّ" أن الجذر الوحيد الذي انتقل من القصة وتوسَّع بالاستخدام والتداول حتى أصبح قولا سائرًا، هو "إنّ"؛ انتقل بثيمته الدلالية القارَّة في بطن الآية، وهي "المؤامرة، المكيدة". وبهذه الثيمة، سيكون تأويل هذا القول، بحيث يفهم السامع له أنّ مكيدة ما تُدبَّر وتُحاك، ولا حاجةَ للمتكلِّم أن يشرح أكثر أو يفصح مادام هذا القول، ببساطة ألفاظه وتعقيد محتواه، ينقل الرسالة ويبعث على الفعل، الذي هو التدبّر في أمر هذه المكيدة.

وللإشارة أكثر إلى هذا الاستعمال للقول السابق، بألفاظه وثيمته وتأويله، ننقل جزءا من مقالة في قناة الجزيرة للكاتبة "ابتسام تريسي" بعنوان "الحكاية فيها إن"؛ تقول: "الحكاية فيها إنَّ" كثيراً ما سمعت هذه العبارة في طفولتيولم أفهم معناها، وحين كبرت وجدت صديقاتي يستخدمنها للدلالة على سر بين اثنتين غالباً ما تغمز المتحدثة بعينها أثناء الحديث لإيهام المستمعة بخطورة السر وطبيعته الكيدية." وفي مقام كهذا، يُرادُ فيه معنى المكيدة والمؤامرة، سيكون منالمناسب جدًا ـ كما رأينا ـ أن يكون المقالَ قولُنا السائر (الحكاية فيه إن)؛ فبه يكون إنتاج المعنى وتوليده أعمق،طالما أنه يتّكِئ على ثيمة متطابقة مع السياق المقامي، متداولة محفوظة في قالبه الخطابيّ.

على أن الدلالة الاستعمالية للقول المأثور السابق (الحكاية فيها إنّ) تتجاوز دلالته الأولى المنقولة إليه بالتأويل إلى دلالات أخرى تدور في نفس الحقل الدلالي للمؤامرة والمكيدة، مثل دلالات الشكوالغموض والتلغيز (أو السر) والاتهام؛ كلها تتبين بحسب مقام المقال. ومن المفيد، هنا، قبل التمثيل لهذه الدلالات، أن نبحث في هذه القدرة الدلالية التوليدية للقول، أو في طاقته الاستمرارية.

إنه من المعلوم بالضرورة أن "العلامة" تكسب علاقتها الثنائية (الدال – المدلول) من المجتمع، مما يعني أن العلامة ذات صبغة اجتماعية؛ هذا ـ في الأقل ـ من منظور السيميائيات التواصلية. تظل "العلامة" في هذا الإطار حرة، تكسب دلالاتها المتعددة والمتراكبة من المجتمع نفسه؛ بمعنى أن المجتمع هو المنتج الوحيد للدلالات، أو ـ بالأحرى ـ هو الذي يعطيها صلاحية التداول والاستقرار (وليس الثبات!). وفي هذا الإطار، يرى السيميلوجيون المتأخّرون أن "الإشارات تعوم سابحة لتغري المدلولات إليها لتنبثق معها، وتصبح جميعًا دوالًا أخرى ثانوية متضاعفة لتجلب إليها مدلولات مركّبة... وهذه العلاقة لا تنشأ إلا بفعل المتلقّي الذي يؤسس هذه العلاقة ويقيمها بين الدال والمدلول، وهي ما يسمى بالدلالة." (الغذامي 2006: 44 – 45) إذن، فالدلالة يقيمها الآخر/ المجتمع، يُكْسِبُها حق التعايش في اللغة المستخدمة؛ لذلك، فنحن دائما أمام دلالات متوالدة ومتراكبة، لا سيما أن المجتمع متجدد، والمفاهيم متبدلة ومتطورة، واللغة كذلك ذات مسلك متحدث ومتغير.

فإنه إذا كانت "إنّ" في قولنا السائر "علامة"، لها حق التأشير ـ كما تؤكد ذلك السيميائية التواصلية ـ إلى متصوّرات حاضرة في الذهنية الاجتماعية، فإنه من اليسير علينا أن نفسّر هذه الطاقة الاستمرارية للقول السائر (الحكاية فيها إن). فهذا القول، باعتباره خِطابًا جاهِزًا، له قوّته المحفوظة فيه، يحمل بذورا اجتماعية حاضرة بقوة: المؤامرة والمكيدة، تمثل هذه بؤرة القول التي منها أضحى المجتمع يولِّد دلالات أخرى لا تبتعد عنها؛ فالشك والغموض والتلغيز والاتهام كلها تتحرك في نفس مجال المؤامرة والسرية والمكيدة. بكلام آخر، فإن هذا الجذر ابتعد عن قصته الأولى، لكنه حفر له موقعا مهما في الذاكرة اللغوية الاجتماعية، موقعا اجتماعيا ثابتا انبثقت منه دلالات وتراكيب تسبح في فلكها؛ مثل: الموضوع فيه إنّ، القصة فيها إنّ، الحكاية فيها إنّ، فيه إنّ، الخبر فيه إن، القول فيه إنّ ... الخ. ولنتأمل في هذه الأمثلة:

1- شادي، على غير العادة، معه فلوس كثيرة؛ القصة فيها إنّ!
2- عمي بعد عشرين سنة في زيارتنا؟! زيارته فيها إنّ!
3- المحقق للمتهم: لا تقنعني أن ذهابك إلى المجني عليه في هذه الساعة المتأخرة ما فيه شيء؛ زيارتك في هذا الوقت فيها إنّ!

فإذا كان المتلفظ بالقول (1) قريبا من صاحب الموضوع، فإن الدلالة تكون "التلغيز" لأنه معني بفكّه ومعرفة ما وراء الموضوع؛ أما إذا كان على مسافة معنوية بعيدة، فإن المتلفظ يشير بقوله إلى غموض يكتنف الموضوع. أما في القول (2)، فإن المتلفظ معنيّ بالكشف عن سر هذه الزيارة، لذلك فالدلالة تذهب إلى "التلغيز". في القول (3)، فإن سلطة المتلفظ ومقام التلفظ يشيران بوضوح إلى "الاتهام".

الخاتمة

لقد ناقشنا في هذه الورقة جملة من القضايا تتعلق بموضوع التخاطب بالقول السائر، وخصصنا بالتمثيل والدراسة القول السائر "الحكاية فيها إنّ" لشهرته وتداوله الكبير بين الناس؛ وقد خلصنا إلى النتائج الآتية:

1- القول السائر يُعدُّ قناة إبلاغية تواصلية يلجأ إليها كل شرائح المجتمع في أحاديثهم ومكاتباتهم؛ إذ إنها تحقق لهم، أثناءَ تواصلهم، أكبر قدر من التأثير في أقل عدد من الألفاظ.
2- كل قول سائر له قوته الخطابية باعتبار المنشئ الأول وغايته، واستخدامها في الخِطاب يضيف معلومات أخرى عن شخصية المستخدم، من أهمها المعرفة الموسوعية بهذه الأقوال.
3- تعد الأقوال السائرة جملا تحمل معاني قضوية جاهزة للاستعمال، إلا أنها تظلُّ موجودة وقارة في المخيال الجمعي مضافًا إليها قوّتُها الخِطابية، لكنّها تحتاج إلى طرف رئيسي (مُتَلَفِّظ مَسْؤول)، ينقلُها بإرداته وقصده من وجود بالقوّة إلى وجود بالفعل؛ فيصير القول السائر، مِنْ ثَمَّ، فعَالًا في ضوء أفعال الكلام، إذ إنه يكون حاملًا لطاقة القصد الملازمة لكل ملفوظ إنجازيّ.
4- في إطار تحليل الخطاب، سيكون مطلوبًا من المتخاطبين بهذا الصنف من الأقوال أن يشتغلوا في التأويل بإمكانيات عقلية رفيعة المستوى، بحيث يحضر القياس والاستدلال والفهم المحلي بقوّة أكبر وتركيز أكثف من الوضع الطبيعي للتأويل.
5- "الحكاية فيها إن" قول سائر له قصته التي أفرزت بؤرة القول "إن" وأعطته دلالة "المؤامرة والمكيدة"، إلا أن المجتمع أفرزَ له دلالات أخرى لا تخرج عن البؤرة الدلالية الأولى، مثل الظن والشك والتلغيز والاتهام.

المصادر والمراجع

ابن الأثير، ضياء الدين: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، داهر نهضة مصر.

براون ويول: تحليل الخِطاب، ترجمة الزليطاني والتريكي، النشر العلمي والمطابع – جامعة الملك سعود، 1997م.

الحذيري، أحمد: التمييز بين المثل والحكمة في كتب الأمثال القديمة عند العرب، حوليات الجامعة التونسية، عدد 31: 1991.

الحميري، عبد الواسع: ما الخطاب؟ وكيف نحلله؟، مجد – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2009، ص 22.

ابن خلكان، أبو العباس: وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، م 3، دار صادر، بيروت.

الذنيبات، ف، القرائن البلاغية للترجيح بين التأويلات عند ابن الأثير في كتاب المثل السائر– دراسة نقدية تحليلية، **دراسات**، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 43، العدد 1، 2016، (77–93).

زعطوط، ح، النكت الباغية: مفاهيم وآليات، **دراسات**، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلّد 43، العدد 2، 2016،(741–753).

عبد التواب، رمضان: المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة، 1997م.

عبيد، حاتم: المثل قضاياه ومعناه، مجلة النقد الأدبي فصول، العدد 67، صيف–خريف 2005م.

العجيمي، محمد الناصر: الظاهر والخفي في النص – القصة نموذجًا، ضمن أعمال ندوة "صناعة المعنى وتأويل النص"، منشورات كلية الآداب بمنوبة، مجلد 8، 1992م.

الغذامي، عبد الله، الخطيئة والتكفيرالخطيئة والتفكير (من البنيوية إلى التشريحية، نظرية وتطبيق)، المغرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط6، 2006.

أبو علي، محمد توفيق، الأمثال العربية والعصر الجاهلي، دار النفائس، بيروت، ط١ ،1988م.

الليوسي، الحسن: زهر الأكم في الأمثال والحكم، تحقيق محمد الحجي ومحمد الأخضر، دار الثقافة، المغرب (الدار البيضاء)، الطبعة الأولى، 1981م.

محاسنة، محمد: التماسك النصي في بنية حكم ابن عطاء الله السكندري، رسالة ماجستير مرقونة في جامعة آل البيت، الأردن،2010م.

الميداني، أبو الفضل: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار السنة المحمدية، مصر، 1955م.

الهاشمي، التهامي الراجي: توطئة لدراسة علم اللغة – التعاريف، دار الشؤون الثقافية العامة "آفاق عربية"، العراق، 1986م.

الهدروسي، سالم: خِطاب الأمثال القديم عند العرب – دراسة أدبية، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد الخامس، العدد 1، 2008م.

يعقوب، إيميل بديع: موسوعة أمثال العرب، دار الجيل، ط1، بيروت، 1995م.

Al-Jarrah, R., Obeidat, M. and Abu-Dalu, A. 2017. Translation of Strategic Ambiguity: A Relevance-Theoretic Analysis. Poznan Studies in Contemporary Linguistics.53: De Gruyter. Adam Mickiewicz University, Poland.

Sperber, Dan. & Wilson, Deirdre. 1986. Relevance: Language and cognition. Oxford: Blackwell.

Sperber, Dan. & Wilson, Deirdre. 1995. Postface to the second edition of Relevance: Communication and cognition, 2nd edition. Oxford: Blackwell.

Yousef, T. A Pragmatic Reading of Shakespeare's Romeo and Juliet, 2014, Dirasat, Human and Social Sciences, Volume 41, Supplement. 2, PP. 903-916.

http://mubasher.aljazeera.net/articlesandstudies/2015/08/20158371137288876.htm

Pragmatical communication using common proverbs; A case study of common proverb: *"al- ḥikāyah fīhā ʔinna"*(there is something fishy)

Ahmad M. Abu Dalu, Khaled H. Dalky *

ABSTRACT

The main goal of the study reported in the article below is to find satisfactory answer to one question: Given the tools of the discourse analysis theory such as the relevance theory (Sperberad Wilson 1985 [1995]), how can the intended meaning of the verbal message be communicated successfully. The basic premise of the theory is that analyzing a text in the most straightforward fashion requires a delicate balance (and therefore interaction) between the text (language) on the one hand and its context (society) on the other. At the functional (and therefore practical) level, the discourse analyst pushes himself to the limit to find the degree of correspondence between the text, which is verbal, and its effect on its recipients. What this basically means is that as meaning is a trade-off between effort and effect, "the overall relevance of the utterance increases by the implication that reduces the cognitive effort needed to process it, and by that which increases its contextual effects" (Al-Jarrah, Abu-Dalu and Obeidat, 2018). Within this conceptual framework, we intend to show how the discourse analyst should be empowered with all it takes to work out the explicatures (linguistically inferred meanings) and entertain himself with the implicatures (contextually inferred meanings) of the commonly used formulaic expression "*الحكاية فيها إنّ*".

Keywords: discourse analysis, common proverbs, relevance theory, Pragmatical communication, effort-effect tradeoff.

* Arabic Department, Yarmouk University, Jordan; Ajman University,U.A.E. Received on 30/8/2017 and Accepted for Publication on 15/5/2019.